المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السابع عشر بعد المئة

١ يوليو سنة ١٩٥٠ — ١٦ رمضان سنة ١٣٦٩

اليهود

كسلالة او شعب[1]

لسير ارنر كيث

الشعب اليهودي يختلف عن سائر الامم الكبرى بأن فكرة اتحاده ليست بناءً على الاقليم او الوطن، وانما يتحد اليهود على يقين انهم نوع من البشر ذو تقليد متقادم العهد، وذو عقيدة شعبية ودينية معاً. ان فكرة الجنسية عندهم مائعة تميل مع الريح، حيثما يذهبون تذهب جنسيتهم معهم (أينما كانوا هم يهود، اذا سألت واحداً منهم ما جنسيتك، قال أنا يهودي). ان فكرة الجنسية المبنية على الوطن أو الاقليم مرنة جداً هي عجينية قابلة للجبل

أما شعور اليهود بالاعتزال والانفصال عن الامم الأخرى فهو شعور صلب. هو شعور «واق من المطر» فقد قضى اليهود ٢٥ قرناً في العاصفة. ان طبيعة جنسيتهم المائعة القابلة للتنقل والشديدة المقاومة والاجتهاد، مكنتهم أن يفعلوا شيئاً لم يفعله أحد سواهم — مكنتهم أن يتغلغلوا بين جميع الامم بسلام. لانجد بلداً في أوروبا وغربي آسيا وشمالي أفريقيا أو في العالم الجديد خلواً من كنيس اليهود وطائفة يهودية مستقلة. وهكذا ترى

---

(١) نأخذ هذا المقال من كتاب «نظرية جديدة في التطور الانساني» الصادر حديثاً، يتعرف تفاصيل في أحد المواضع

أن اليهود يختلفون عن سائر الأمم بكونهم لا وطن لهم ولا جماعة متكتلة في مملكة واحدة، بل هم مشتتون جماعات شبه منعزلة. اليهود يخافون أن تغرق جنسيتهم في الجنسيات الأخرى، بل يخافون أن تفنى في بحر الجنس البشري.

كثيرون من البحاثة، يهوداً وغير يهود، يترددون في اعتبار اليهود أمة. وصديقي المرحوم فليب مقدس صرّح برأي كثيرين من اليهود الانكليز حين كتب « انهم جماعة دينية ذات ولاء للدولة كسائر الجماعات الأخرى الدينية. والمستر مونتفيور اليهودي العلامة الانكليزي أكد القول بأن اليهود يعزلون أنفسهم لأجل دينهم. وليس غرضهم أن يخلدوا سلالتهم بل دينهم، والذين كتبوا عن الشعبية Nationalism يذكرون اليهود صفة جماعة سلالية مختصة كأنها أمة بالمعنى الروحي. ودائرة المعارف اليهودية تسلّم بأن اليهود كانوا أمة، وأما الآن فانهم جماعة دينية. قال مستر ووسبان ولف سنة ١٩٠٤ أن اليهود جماعة دينية مربوطة بالزواج الداخلي ». وأما اختلاف الآراء بهذا الشأن فيفسر بأن الديانة اليهودية كسائر الأديان القديمة كانت ترمي الى سعادة الجماعة أو القبيلة وبالتالي الى بقائها. اليهودية تنص على المبادىء الدينية والاجتماعية والسياسية كما انها تنص على المبادىء الدينية.

كتب جيبون في كتابه عن سقوط الامبراطورية الرومانية وزوالها : « يظهر ان دين موسى جُعل لقطر خاص ولأمة خاصة ». اليهودية شعبية National بمقصدها. والرومان كانوا هكذا بلا شك ؟ والنصارى طائفة مكونة من عدّة أمم. وكتب كتبن يهودي في المانيا : « اليهود أمة سائرة في طريقها مستعدّة أن تضحي التضحيات اللازمة ».

ليس سهلاً أن أثبت أن اليهود أمة. فاذا اعتبرناهم أمة فهم أيضاً سلالة، فاعتبارهم سلالة يصدق على أول ظهورهم كسلالة. في سنة ١٥٧٠ ظهرت الجملة التالية في أحد المطبوعات « سلالة ابراهيم وشعبه » والمطران نوروينش كتب : « التاريخ نفسه (التوراة) هو قصة غير تامة عن سلالة صغيرة ». فان كنت مخطئاً في كلامي عن اليهود كسلالة أكون مسبوقاً بهذا الشأن ولي نظير. أن معظم زملائي الانثروبولوجيين في انكلترا وفي أوروبا وفي أميركا ينظرون الى السلالة نظرة عالم في علم الحيوان، ويعتقدون أن السلالة تتميز بعلامات خارجية، في حين أني أعتقد أن العلامات الأولية يجب أن تكون سيكولوجية (عقلية).

واليهود جميع الخواص السيكولوجية التي للسلالة، فهم يشعرون بالتشابه الكلي فيما بينهم، وانهم يختلفون عن سائر الشعوب. وهم يعترفون عن التزاوج الداخلي (فيما بينهم)، ويضحون بحياتهم في سبيل تخليد جنسهم. هم شعب مختار منعزل عن سائر الشعوب: وقد أشتهروا في رسالة المسيح. وحسب رأي كالدويل الذي كتب سنة ١٩٣٥ عن جهد اليهود فيما بين سائر الشعوب، الاحتقار والتعصب وعدم التساهل هي عناصر جوهرية في اليهودية. كما صفات سلالية. والأستاذ هادكينز رأى أن لليهود جميع الصفات الأخرى التي للأمة وهي وجدان السلالة الزائف: أي الشعور بتفوق السلالة وتفاوتها.

الوسيلة الحاسمة لتمييز سلالة من أخرى الاعتماد على النظر والسمع. ويزنيوغ الذي هو انثروبولوجي يهودي يؤكد أن الروس يمكنهم أن يميزوا ٥٠ بالمئة من اليهود من مظهرهم. والروس اليهود يمكنهم أن يميزوا بعضهم من بعض في ٧٠ بالمئة من الأشخاص. واختباري في الجامعات البريطانية يجعلني أصدق في ٤٠ بالمئة من الاشخاص اليهود في التمييز بين اليهود وغيرهم. ولكني أخطىء نحو خمسة بالمئة في الناس الذين لم يبق منهم دم يهودي. ردهنبرج عالم الحياة النمساوي قدر الفرق بين اليهود الأوربيين والعناصر الأخرى كالفرق بين السومريين والأسيان. والدكتور سلامان العالم اليهودي قال: أن يهود جنوب أوربا المسمين السفارديم يعرفون خالاً من مظهرهم. وسواء استعملنا كلمة سلالة كما يستعملها عالم الحيوان أو بمعناها الأصلي يعتبر اليهود سلالة.

النقطة المهمة الآن هي أن نستكشف متى وأين عرف اليهود كسلالة تامة بحيث انها لا تحتاج الى اقليم تقيم وتعيش فيه. المصدر الأساسي لهذا الأمر هو العهد القديم، التوراة. التوراة والانثروبولوجيا الحديثة متفقتان في تعيين الوطن الأصلي لليهود. كان ابراهيم سوريًا سليلاً من الشعب الذي وضع أساس الحضارة البابلية. ويجب أن نلاحظ ان قبيلة ابراهيم كانت جماعة تتزاوج داخليًا، أي انها لا تتزاوج مع قبائل أخرى، ابراهيم تزوج أخته من أمه، وناحور تزوج بنت أخته، واسحق ويعقوب تزوجا بنتي عمهما. وأخيراً حين استوطن حفداء ابراهيم جنوب فلسطين أصبح امتزاجهم بالأمم الأخرى خطراً على نقاوة السلالة. ونلاحظ أن يهودا الذي يجب أن نلاحظه على الخصوص، تزوج إحدى

بنات البلاد (من غير قبيلته) وهكذا نزل ابنه

وكاتب التوراة المؤرخ يترك بعد نفسه مسافة بلا تفسير، ولاسيما رحلة بني اسرائيل الى مصر ومن مصر، وهو يتنقل أمر الاسرائيليين حين كانوا في مصر. ولقد كانوا آخر حلقة من سلسلة الشعوب التي امتدت شمالاً أي غربي الأردن حتى حدود سوريا. فالمديانيون والعمالقة والأدوميون والموآبيون والعمونيون يمثلون حلقاً في تلك السلسلة. كلهم يتكلمون لغات مختلفة مشتقة من لسان واحد كالاسرائيليين. والراجح ان الاسرائيليين دخلوا مصر لا كأعضاء أسرة واحدة، بل كقوم متجمعين من أسرات عديدة. والقبائل الأعراب لا يزالون يقيمون في ضواحي الدلتا المصرية، وبعد اقامة محدودة يرحلون. وكذا الاسرائيليون بعد توحل طويل في مصر، يقدر عادة بنحو ٤٤٠ سنة، صاروا قوماً صحراويين (يترحلون). وتنقيب جارستانغ Garstang في أريحا أظهر أدلة على عبور الاسرائيليين نهر الأردن وفتحهم الأرضين العليا في فلسطين في زمن تقرر انه منذ ١٤٠٠ سنة قبل المسيح. وهذا البحاثة نفسه يقدر ان بني اسرائيل لما دخلوا فلسطين لم يكونوا يعدون أكثر من ستة آلاف نفس او سبعة آلاف[1]. وان يشوع (الذي استلم قيادتهم من موسى لم يكن يقدر أكثر من الف نفس). وكان اهالي البلاد حينئذ جماعات سلالات مختلفة. ومؤرخ التوراة (في سفر يشوع الاصحاح ١٢) يذكر نحو ٣١ مملكة او ولاية وقعت في أيدي الاسرائيليين. واذا علمنا ان مساحة فلسطين نحو ١٠ آلاف ميل مربع أي نحو خمس مساحة انكلترا، وان أكثر من نصفها قليلاً صالح للاقامة، فنعلم كم كانت هذه الممالك صغيرة. والقراء يعلمون حينئذ جيداً كم كانت أقاليم الأسباط الاثني عشر صغيرة.

ولما استوطن الاسرائيليون في فلسطين ألفوا اتحاد قبائل Confederation. ولكي يصيروا أمة كان عليهم ان يحلوا نظام القبيلة. وقد تم ذلك تحت حكم شاوول وداوود وسليمان أي بين ١٠٥٠ و ٩٥٠ قبل المسيح. وكان سبط يهوذا أول من أحدث هذا التغيير في القبيلة، وأقام حكومة مركزية. واذ نرى أن اليهود جاؤوا من سلب يهوذا يجب أن نوجه أبصارنا على الخصوص الى ذلك السبط. وكان اقليمه يمسح نحو ٢٥٠٠ ميل مربع

(١) والتوراة تقول انهم خرجوا من مصر ٦٠٠ الف ماش (سفر الخروج: الاصحاح ١٢: عدد ٣٧)

ونصف أرضه جبلي أو صحراوي . وفي عز قوة بني يهوذا وتوحيهم لم يزد عددهم على نصف مليون . وأرض يهوذا من أغنى فلسطين بمدنها وكهنتها وأنبيائها . وكان بنوها عبداً وعلاقة الرقاب متعممين .

أول نكبة نكب بها الاسرائيليون انفصال الأسباط الشمالية العشرة من اتحادهم سنة ٩٣٥ قبل المسيح عن شعب يهوذا . وبعد قرنين (سنة ٧٣٨ — ٧٢٦ ق م) رأى بنو يهوذا أن الأسباط العشرة سيقعوا أسرى الى بلاد أشور واحتل بلادهم قوم أغراب عنهم . وفي أقل من قرن رأى بنو يهوذا أنفسهم في نفس الحالة ، اذ سيق الجانب الأكبر منهم أسرى الى بابل (٥٩٦ — ٥٨٢) . وفي الأسر وجد ابناء يهوذا أنفسهم في عقلية أشد سلابة وعناداً من اخوانهم الذين كانوا في المملكة الشمالية . واسرائيليو الشمال ذابوا في الشعوب الغريبة التي نزلت في أرضهم بينهم . والقوم الجلوبيون (الذين نتكلم عنهم الآن كيهود) حرصوا على ذاتيتهم . وحين كانوا بين البابليين ، حافظوا على لغتهم وعاداتهم . وهذبوا ديانتهم حرصاً على سلالتهم . وحافظوا على تقاليد سلالتهم بحيث أن ديانتهم تبقى نقية غير ملوثة . ويقينهم بأنهم مستقلون عزل من الأمم الأخرى ، وانهم شعب مختار ، واحساسهم بأنهم سلالة قائمة بذاتها — هذا اليقين أقدرهم أن يصمدوا ضد قوة الاندماج بالبابليين . وأخيراً وهم يشعرون انهم دخلاء في الامبراطورية الفارسية (بعد أن غزا كورش الفارسي بابل وامتلكها وأطلق سراحهم) كان شعورهم بأنهم سلالة مستقلة حفظهم كشعب قائم بذاته . ولطالما جاهد الاغريق والرومان والمصريون ضد ضادهم في تمسكهم بذاتيتهم فأخفقوا .

هذا لنا خبر حادث ممتاز في مجرى التطور البشري — خبر لنشوء سلالة ذات فرع جديد . ولدت السلالة وترعرعت في اقليم من فلسطين ، كان حصة سبط يهوذا . وكان هذا السبط يحصر التزاوج في داخله . ولكن هذا الحصر في التزاوج لا يكفي وحده لتولد شكل خاص للعقلية . فلا بد إذن كان في تكوين هذا السبط رجال ونساء أغنياء بالشعور والاميال والاستعداد الطبيعي لهذه العقلية . هذا النوع من العقلية الذي أنسبه الى بني يهوذا الأولين القدماء تمثل في نحميا ساقي ملك فارس في قصر شوشان نحو سنة ٤٩٩ ق . م .

نقل الى نحميا أصحابه أخباراً سيئة عن حالة أورشليم . قال نحميا في سفره الاصحاح الاول عدد ٤ . — « فلما سمعت هذا الكلام جلست وبكيت ورثيت أياماً وصمت وصليت أمام إلـه السماء » . والانسان الذي يفعل هكذا لا يكون ذا شخصية اعتيادية . ان أناساً كهذا يكرهون أن يتطرفوا . ولكنهم يودون أن يتطرفوا (في مثل هذا الظرف) فلا تثكر على نحميا عواطفه نحو قومه .

كان اليهودي في وطنه الأصلي فلاحاً . وكانت له مزارعه يزرع فيها القمح والشعير . ويشذب كرمته . ولكن الفلاح كان يقطن في مدينته . ويجوز انه سافر في البلاد بغية مدنياً لسكنه ، لأنه في المدينة يعيش مع قومه ، ويتجنب من الاندماج في أقوام أخرى . ولكن كيف نجح في التجارة ؟ في مراكش الاسبانية لنا مثل على كيفية صيرورته تاجراً وحرافاً . نشأت سوق على الحدود حيث تلتقي أقاليم بعض القبائل وحيث يحدث التقايض . في أول الامر أشغل تلك الاسواق يهود . وقد جلبوا معهم الأحذية والملابس الجاهزة لكي يبدلوا بها بضائع أخرى من الأهالي . فكانت القبائل ترحب بهم لأنها تحتقر التجارة والتجار . فانتقل هذا الشغل رويداً الى يهود مراكش . فأدخلوا المعاملة بالنقد وأصبحوا صيارفة وذوي مصارف . بمثل هذا الأسلوب صار اليهود تجاراً في الأرض التي استوطنوها . ففي زمن ابراهيم كانت التجارة بين سوريا ومصر في أيدي الشعوب السامية . وفي الزمن القديم والزمن المتوسط كان الاعراب ينقلون البضائع ويبيعونها .

وهناك شمان آخران الارمن والفرس شاركوا اليهود في عقليتهم السلالية ، فكانوا يتاجرون في مدة تشتتهم . الارمن محسوبون آريين واليهود ساميين ، ولكن لكلا الفريقين سجايا في العقل والجسد يشتركان بها بحيث أن الانثروبولوجي الذي يحسب حساب هذا التشابه يشعر انه مضطر أن ينتهز الى الوراء ، فيرد الفريقين إلى تلك السلالة الموهومة التي كانت في طليعة العناصر التي أنشأت حضارة ما بين النهرين . وانى لأوافق الدكتور باو Dr. L. W. Parr في ما قاله بشأن سجايا الارمن : « هم ذوو درجة عالية في الوحدة السلالية ، وسجايا خاصة اجتماعية واقتصادية حتى في دمهم وخواصهم الضيعية . وعقلية الفرس من جهة أخرى لا تنسب إلى ميراث من شعب بين النهرين . كانوا فرساً من

طوال الرؤوس وسود الشعور . وأما يهود الشمال فكانوا مستديري الرؤوس [illegible] شقر أو صفراء أو وردية . فكيف نعلل هذا الخلاف بين الجانبين اذا كان كلهم من [illegible] يهوذا . لا ريب أن اليهود الأولين هدوا كثيرين الى اليهودية ، وبسبب الزواج [illegible] من حين إلى حين ضموا جريشيات [illegible] من الشعوب المختلفة التي كانوا يتجيشون [illegible] في جريشاتهم الخاصة . وبهذا البيان تفسر خواصهم الفسيولوجية . ولكن لعوامل «الانتخاب الطبيعي» عملٌ ما دامت تكوّن جالية بعد جالية . ونحن نعلم انه حين تنقسم جماعة [illegible] سلالة تختلف الأقسام الجديدة عن القديمة بقوتها التوليدية . فحين ولّدت الجالية اليهودية القديمة زمرة من الرواد لكي تؤلف جالية في بلدة مجاورة ، فالرواد يختلفون في بعض الصفات عن الجالية الأم . وحيث هذه الجالية الجديدة تصل لتأليف جالية ثالثة ، فالثالثة تختلف أكثر فأكثر عن الأم والجدة . والراجح أن اليهود الذين بلغوا الى بولندا قادمين من حوض الرين كانوا الحلقة العشرين أو الثلاثين من سلسلة الجوالي المتوالدة من الجالية الأم التي نشأت في الرين ثم هجرته . هكذا نتوقع ان اليهود الذين بعدوا جداً عن مركز التشتت يجب أن يختلفوا جداً عن طابع يهوذا أو طرازه .

* * *

فعملية التطوّر التي احتملها اليهود لم تنحصر في صفاتهم الجسمانية بل جهازهم العقلي . السمة الجوهرية التي يتسم بها اليهودي هي إحساسه الحي بأنه حلقة من سلسلة سلالته وإنه خير متصل بالأمم الأخرى Jentiles . بغير هذا الاحساس يغرق في بحر الأممية . فكم لحظة في التجارب التي تعرّض لها اليهود والغربة التي قاسوها وعملية الانتخاب التي احتملوها في الـ ٢٥ قرناً التي تفصلهم الآن عن جدودهم الذين كانوا في الأسر كانت خواص اليهود الاجتماعية قد تطوّرت كما تطوّرت خواص الأممي . وكان دائماً تفريه جواذب مضيافه الاجتماعية . حتى إذا كان ضعيفاً أصبح فريسة لها . الاثم الذي لا تغتفره جماعته هو شروده عن عقيدته وسلالته وعلى الرغم من حرمه من جماعته وجحدها له . قد يقع في هوى مرأة من إحدى الأمم ويتزوجها . وهكذا يجلب دمًا أمميًا الى سلالته . والنسل المختلط من زواج كهذا مع الزمن يؤول الى

شراك الرؤوس وسود الشعور . وأما يهود الشمال فكانوا مستديرو الرؤوس وشعورهم شقراء أو حمراء أو وردية . فكيف نعلل هذا الخلاف بين الجانبين اذا كان كلاهما من سلالة يهوذا . لا ريب أن اليهود الاولين هدوا كثيرين الى اليهودية . وبسبب الزواج المختلط من حين إلى حين ضموا جريثيات gins من الشعوب المختلفة التي كانوا يتحيشون صفات جريثياتهم الخاصة . وبهذا البيان تفسر خواصهم الفسيولوجية . ولكن لعوامل الانتخاب الطبيعي » عملٌ ما دامت تكوّن جالية بعد جالية . ونحن نعلم انه حين تنقسم جماعة أو قبيلة تختلف الاقسام الجديدة عن القديمة بقوتها التوليدية . حين ولدت الجالية البيرمية القديمة زمرة من الرواد لكي تؤلف جالية في بلدة مجاورة ، فالرواد يختلفون في بعض الصفات عن الجالية الام . وحيث هذه الجالية الجديدة تصل لتأليف جالية ثالثة ، فالثالثة تختلف أكثر فأكثر عن الام والجدة . والراجح أن اليهود الذين بلغوا الى بولندا ناهضين من حوض الرين كانوا الحلقة العشرين أو الثلاثين من سلسلة الجوالي المتوالدة من الجالية الام التي نشأت في الرين ثم هجرته . هكذا نتوقع ان اليهود الذين بعدوا جداً عن مركز التشتت يجب أن يختلفوا جداً عن طابع يهوذا أو طرازه .

* * *

فعملية التطوّر التي احتملها اليهود لم تنحصر في صفاتهم الجسمانية بل جهازهم العقلي . السمة الجوهرية التي يتسم بها اليهودي هي إحساسه الحي بأنه حلقة من سلسلة سلالته ، وإنه غير متصل بالأمم الأخرى Gentiles . بغير هذا الاحساس يغرق في بحر الأممية . فكم لحظة في التجارب التي تعرّض لها اليهود والغربلة التي قسوها وعملية الانتخاب التي احتملوها في الـ ٢٥ قرناً التي تفصلهم الآن عن جدودهم الذين كانوا في الأسر كانت خواص اليهود الاجتماعية قد تطوّرت كما تطوّرت خواص الأممي . وكان دائماً تغريه جوانب مضيافه الاجتماعية . حتى إذا كان ضعيفاً أصبح فريسة لها . الاثم الذي لا تغتفره جماعته هو شروده عن عقيدته وسلالته وعلى الرغم من حرمه من جماعته وجحدها له . قد يقع في هوى مرأة من إحدى الأمم ويتزوجها . وهكذا يجلب دمًا أمميًا الى سلالته . والنسل المختلط من زواج كهذا مع الزمن يؤول الى

التاريخ بالشعوب الذين اختلط بهم . فاذا لم تكن عقلية اليهودي السلالية موروثة فالنسل يغرق في الأمم ويضل عن السلالة وينفصل عنها . وفي أثناء قانين جيلا كان اليهود يقاسون حملة الانتخاب العقلي القاسية . ولو لم يكن الاحساس السلالي راسخاً فيهم لغرقوا في بحر الأمية . وبدلاً من أن يضعف شعور اليهودي بالاستقلال عن الأمم كان ينمو أقوى فأقوى مع الزمان . وبين الأمم صار الشعور بالقومية أكثر طغياناً وعدائيًّا .

* * *

كانت لي فرصة حسنة أن أتكلم عن عقلية تحيا كطابع لعقلية اليهود ، على أني أزيدها برهاناً إذا كنت أقتبس شعبه المزواج المختلط (السفر ١٤ العدد ٢٣) « في تلك الأيام أيضاً رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات ومؤآبيات ونصف كلام بنيهم بلسان الأشدودي ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي بل بلسان شعب وشعب . فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناساً » وكان النبي عزرا يعتقد أن هذا الزواج المختلط جلب عليهم غضب الرب على شعبه المختار (سفر عزرا الاصحاح العاشر عدد ١٠ و ١١) .

وكان كلما عنفت الأمم مواطنيها اليهود زادوهم حرية دينية واجتماعية ومدنية . وسقط العدد الأكبر من اليهود فرائس لعملية الاندماج بالأمم . ومن جهة أخرى كانوا كلما تحاملت الأمم عليهم ، وكلما اشتد الاضطهاد ونشطت نعرة الروح المقاومة للسامية اشتد التصام اليهود وصاروا أكثر تعصباً ، واليهود الذين لم يبالوا بديانتهم بل أهملوها وصاروا على شفا أن يهجروا الجهاد السامي كانوا إذا أصبحت سلالتهم تحت خطر يتصدون تحت لوائها للدفاع . تكفينا شهادة يهودي واحد على صحة هذا القول . هي أن الفيلسوف برغسن اليهودي الفرنساوي لما اشتد الاضطهاد على اليهود في المانيا سنة ١٩٣٧ قال تعليلاً لهذا الاضطهاد « ان تفكيري قادني شيئاً فشيئاً الى الكتلة التي كنت أرى فيها اتفاقاً مع اليهودية ، كدت أعتنقها لو لم أتوقع الموجة الهائلة ضد السامية . أود أن أبقى مع هؤلاء الذين سيضطهدون غداً » . هذه هي روح اليهودي السلالية ، لا تخور .

[وفي العدد القادم تعليق على مقال الدكتور السيركيث]